(٢٥) محمد بن أسلم الطوسي[١]

ذكر الشيخ محمد بن أسلم الطوسي رحمه الله تعالى:

كان قدّس الله روحَه وحيدًا في وقته، مُفيدًا لأهل الإيمان، مُتابعًا للسنة النبوية حتى قيل له: لسانُ الرسول، وله في متابعة السُّنة قدمٌ راسخٌ حتى أنه ما كان أَحدٌ مثلَه، فإن جميع حركاته وسكناته كانت على وفق السُّنة والشريعة.

نقل أنه رحلَ إلى نيسابور، وكان مع الإمام علي بن موسى الرِّضا رضي الله عنهما في محفَّةٍ واحدةٍ، وإسحاقُ بن راهويه الحنظلي ـ وهو إمامٌ مشهور ـ آخذٌ بزمام البعير المحمولِ عليه محفَّتُهما، فلمّا وصلا إلى نيسابور، ونزل رآه أهلُ نيسابور، وعلى رأسه قلنسوةٌ من اللبد، وعليه قميصٌ من الكساء الغليظ، مُعلّقًا على رقبته خريطةٌ فيها كتبٌ، ولما رأوه على هذه الحالة بكوا، حتى بكى هو أيضًا، ثم سألهم عن بكائهم، قالوا: لأنّا نراكَ في هذه الثياب. قالَ[٢]: لا تعجبوا؛ فإنَّها لباسُ الرجال.

نقل أنه كان يشتغلُ بالوعظ، ولا يحضرُ في مجلسه إلاّ ناسٌ مَحصورون، ومع هذا قد اهتدى ببركته وبركة أنفاسِهِ خمسون ألف إنسان تقريبًا، وتابعوا وصلحتْ أحوالُهم، ورجعوا عن الشرِّ والفساد.

---

(١) الجرح والتعديل ٧/ ٢٠١، ثقات ابن حبان ٩/ ٩٧، حلية الأولياء ٩/ ٢٣٨، صفة الصفوة ٤/ ١٢٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٣٤٢، طبقات ابن عبد الهادي ترجمة (٥١٩)، العبر ١/ ٣٤٧، تذكرة الحفاظ ٥٣٢ (ترجمة ٥٥٠)، دول الإسلام ١/ ١١٤، مرآة الجنان ٢/ ١٣٥، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٤، طبقات الحفاظ ٢٣٣، ترجمة (٥٢٩)، طبقات الشعراني ١/ ٦٣، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٦٩٩، شذرات الذهب ٢/ ١٠٠، الرسالة المستطرفة ٦٤.

(٢) في (ب): الثياب. قالوا.

نقل أنه حُبس سنتين ليعترفَ بخلق القرآن، فلم يعترفْ به، وقال: لا أقول به أبدًا.

نقل أنه ما دامَ في تلك الحبس يغتسلُ كلَّ جمعةٍ، ويأخذُ سجّادته، ويأتي إلى باب السجنِ، ويمنعُه السجّانُ عن الخروج، ثم يرجعُ، ويضع خدَّه على التراب، ويقول: إلهي، أَتيت بما استطعتُ، وأنت أعلم.

نقل أنه أُطلق من الحبس، ودخلَ عبدُ الله بن طاهر[١]، وكان مَلِكًا بنيسابور[٢] واستقبلَهُ أَهلُ المدينة، وكان الأعيان والأكابرُ والأشراف يأتون إليه كلَّ يوم إلى سبعةِ أيام، ويُسلّمون عليه، حتى سألَ: هلَ بقي في المدينة[٣] من لم يأتِ إلينا؟ قيل: نعم، شخصان: أحمدُ بنُ حرب، ومحمد بن أسلم الطوسي. وقال: وما منعهما؟ قيل: هما عالمان ربّانيان مُنقطعان عن الخلق، لا يتردَّدان إلى أهل الدنيا. قال: فأنا أَذهبُ إليهما. فذهبَ شخصٌ إلى أحمد بن حرب، وأخبرَهُ عن الحال، وهو لم يرض بذلك، إلاّ أَنَّ عبد الله بن طاهر جاءَ إليه مُطرقًا رأسه، فرفع رأسَه، ونظر إليه، وقال: سمعت أنَّك رَجلٌ حسنُ الطلعة، جميلُ المَنظر، وأنتَ أَحسنُ ممّا سمعتُ، فعليكَ أن لا تُقبّحَ هذا الوجه، ولا تُشوّهه بمخالفةِ الله تعالى، والمعاصي. فخرجَ عبدُ الله، وذهب إلى محمد بن أسلم، لكن هو أغلقَ البابَ، ومنعَهُ عن الدخول، ولم يجدْ عبدُ الله سبيلاً إليه بأيِّ احتيال، وكان يومَ الجمعة، فصبرَ إلى أن خرجَ، وقصدَ الجامع، وعبدُ الله ينظرُ إليه، ويبكي إلى أن فني صبرُهُ، فنزل من الفرس، ويَمسُّ وجهَه على الأرض بين يديه، وقال: إلهي، إنّه يُبغضني لله، لأنّي عبدٌ سيِّئٌ شقيٌّ، وأنا أحبُّه لله تعالى؛ لأنَّه عبدٌ مقبولٌ سعيد، وكلانا من عبادك[٤]،

---

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن زريق الخزاعي بالولاء، أبو العباس (١٨٢-٢٣٠هـ) أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي.

(٢) في (أ): وكان ملك نيسابور.

(٣) في (ب): حتى سأل: أهل بقية من أهل المدينة.

(٤) في (أ): وكلُّنا من عبادك.

فاغفرْ لهذا القبيح الفعال ببركةِ هذا الحميد[١] الخصال.

ثم سافرَ محمدُ بن أسلم رحمه الله إلى الطوس، وسكنَ هناك، وله فيها مسجدٌ، كان إذا دخله أَعمى يَصيرُ بصيرًا.

وهو كان من العرب، لكنْ نُسب إلى الطوس لكثرةِ مَقامِهِ فيها.

وكان يجري عند بابِ داره ساقيةٌ، وهو ما استقى منها، وقال: الماءُ الجاري فيها حقٌّ للناس، ولا يحلُّ لي الاستقاءُ منه، وكان يميل قلبُه إلى الماء الجاري مدّةً، وزاد ميله، فاستقى من البئرِ التي في بيته كوزَ ماءٍ، وصبَّه في الساقية، وأخذَ بدلَهُ كوزًا منها.

نقل عن شخصٍ من أكابر الطريقة أنه قال: كنتُ في الروم جالسًا بين جماعةٍ، إذا إبليسُ جاء في الهواء، وسقطَ على الأرض، قال: كيف يا لعين؟ وما أصابك؟ قال: تَنحنَحَ محمدُ بن أسلم في الطوس في المتوضَّأ، فأنا من الخوفِ والفزع وقعتُ هنا.

نقل أنه كان يستقرضُ ويصرفُ إلى الفقراء[٢]، فجاء إليه يومًا يهوديٌّ وتقاضاه دينَه الذي كان عليه، ولم يجد شيئًا يؤدّي دينه[٣]، ولكن قد برى قلمًا، ونحتتُه كانت عند حصيرةٍ، فقال لليهودي: قم، وخذْ مقدارَ دينك من النحاتة تحت الحصير. فقام إلى الحصير، ورفعَ طرفَهُ، فإذا نحاتةُ القلم قد صارتْ ذهبًا، فتعجّبَ اليهوديُّ وقال: دِيْنٌ يُصيِّرُ نحاتةَ القلم ـ بنَفَسٍ عزيزٍ من أهله ـ ذهبًا لا يكونُ باطلاً. فآمن اليهودي، وآمنَ معه قبيلتان بموافقته

نقل أن الشيخ [أبا] عليَّ الفارمذي كان يعظُ الناس بنيسابور، وإمامُ الحرمين[٤] حاضرٌ، فسأله شخص: مَنِ الذين قالَ النبيُّ ﷺ فيهم: «العلماء

---

(١) في (ب): هذا الجيد الخصال.

(٢) في (أ): وينفق على الفقراء.

(٣) في (أ): يؤدي إليه.

(٤) في (أ): كُتب تحت كلمة (إمام الحرمين): أستاذ الغزالي. أقول: هو عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩ـ٤٧٨) أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي.

ورثة الأنبياء»[١]؟ فقال: ليس القائلُ ولا المسؤول عنه وإمام الحرمين أيضًا منهم، ولكن هذا الرجلُ منهم. وأشارَ إلى قبرِ محمد بن أسلم رحمه الله

نقل أنه مرضَ بنيسابور، فرآه شخصٌ من جيرانه في المنام وهو يقول: الحمدُ لله على أني خلصتُ من المرض. فأصبحَ الرجل، وجاءَ مُستعجلاً إلى الشيخ ليُخبره أن الشفاءَ قد قربَ، فلمّا وصلَ إلى بابه، وسأل عن حاله، فقائل قال: آجرك الله، تُوفّي الشيخُ رحمه الله في الليل.

فلمّا حُملت جنازته، وله خرقةٌ أُلقيت على الجنازة، وقطعةُ لبدٍ كان يجلسُ عليها فُرشت تحته على الجنازة، قالت عجوزتان واقفتان على سطحٍ: ذهب محمدُ بن أسلم بما كان له.

أسكنَهُ الله تعالى أعلى فراديس الجنان، ونظرَ إلينا بنظرِ اللُّطفِ والإحسانِ، والمغفرة والرحمة والرضوان، بحرمة حبيبه ونبيِّه محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

* * *

(١) حديث رواه أحمد في المسند ٥/ ١٩٦، وأبو داود (٣٦٤١) في أول كتاب العلم، وابن ماجه (٢٢٣) في المقدمة، باب فضل العلماء، والدارمي ١/ ٩٨ عن أبي الدرداء.